بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد.

والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين وهاديا للناس أجمعين، بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

سيدنا وإمامنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد:

ففي أواخر التسعينات من القرن الرابع عشر الهجري، وأواخر السبعينات من القرن العشرين الميلادي، أقام اتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا وكندا مؤتمرهم السنوي، الذي تعودوا أن أشاركهم فيه لعدة سنوات، ولكن لم أتمكن من السفر إليهم ذلك العام، فطلبوا إلي أن أسجل لهم كلمة تسمع، أساهم بها من بعيد في هذا اللقاء، الذي كان محوره وعنوانه: «لماذا الإسلام؟» وقد يسر الله تسجيل هذه الكلمة وإرسالها إليهم في شريط، وقد تفضل بعض الإخوة فأفرغها على الورق لتقرأ، ونشرت في أحد مجلدات الموسم الثقافي لجامعة قطر «ثمار الفكر».

وها هي مكتبة وهبه تنشرها من جديد، توسيعًا لدائرة الانتفاع بها، وعسى أن تتبعها إن شاء الله محاضرات أخرى ألقيت في أقطار شتى، ومناسبات

مختلفة، وموضوعات متنوعة، ولكنها كلها تدور حول «الإسلام» ودعوته وصحوته وما تعانيه من أدواء، وما يوصف لها من دواء، وما يكاد لها من عدوها، منه وما تسيء به هي لنفسها.

ولا أقول هنا إلا ما قاله نبي الله شعيب من قبل: {**إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ**} [هود: 88].

الفقير إلى ربه

يوسف القرضاوي

لماذا الإسلام؟

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما. نحمدك اللهم على كل حال، ونعوذ بك من حال أهل النار.

وأحييكم أيها الأخوة الأحباب هناك في أمريكا الشمالية، في الولايات المتحدة وكندا، أحييكم من هنا، من الشرق الإسلامي، من بلاد العرب ومن ضفاف الخليج، أبعثها إليكم تحية من عند الله مباركة طيبة، تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكم كنت أود أن أكون بينكم بجسمي كما أنا بينكم ومعكم بقلبي، كم كنت أود أن أرى تلك الوجوه المشرقة بنور الإيمان، والتي عرفت كثيرا منها من قبل فأحببتها في الله ولله، وكم كنت أود أن أكون بينكم هذه الأيام المباركة التي تجتمعون فيها من هنا ومن هناك، من أقاصي تلك الولايات، شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، لتلتقوا على كلمة الله تبارك وتعالى، وعلى طاعته، وعلى نصرة دعوته، فأبشروا أيها الأخوة فإنكم ما أجتمعتم إلا لله، وإذا صحت نيتكم فكل خطواتكم وكل ما أنفقتم من نفقة هو في سبيل الله، وهو محسوب لكم في ميزان حسناتكم عند الله عز وجل، وصدق الله العظيم إذ يقول في سلفكم من

المجاهدين: {**وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**} [التوبة: 121].

إن الموضوع الذي أخترتموه ليكون محور محاضراتكم ومناقشاتكم وندواتكم هو الإجابة على هذا السؤال الكبير: لماذا الإسلام؟ لماذا ندعو الناس وندعو أنفسنا إلى الإسلام؟ ندعو الآخرين ليدخلوا في الإسلام، فيخرجوا به من الظلمات إلى النور، ويهتدوا به إلى الصراط المستقيم، لماذا ندعو الدنيا كلها إلى الإسلام؟ لتخرج من حيرتها وقلقها وعذابها. ولماذا ندعو أنفسنا أيضا إلى الإسلام؟

ندعو الآخرين إلى الإسلام؛ لأنه وحده منهج الله عز وجل الذي يهتدون به، ويسعدون به، وليس هذا موضوع حديثي إليكم الآن، وإنما حديثي هو عن الشق الثاني: لماذا ندعو أنفسنا نحن المسلمين إلى الإسلام؟ وكيف يدعى المسلم إلى الإسلام؟

ندعو أنفسنا إلى الإسلام؛ لأننا في الواقع ندعي الإسلام ولا نطبقه ولا نلتزمه في حياتنا، ولا نحيا الحياة الإسلامية التي أرادها الله تعالى لنا.

أين الإسلام في تشريعاتنا؟ أين الإسلام في تربيتنا؟ أين الإسلام في ثقافتنا؟ أين الإسلام في إعلامنا؟ أين الإسلام في سلوكنا الفردي والاجتماعي؟ أين الإسلام في تقاليدنا الاجتماعية؟ أين الإسلام في مؤسساتنا كلها؟

إننا نعيش على هامش الإسلام، ولذلك يجب أن نعود إلى الإسلام، يجب أن نعود إلى الإسلام لنعيش مسلمين حقا بهذا الدين، لتتم به النعمة علينا كما أراد الله تعالى لنا {**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ**

ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ} [المائدة: 3].

نحن ندعو إلى الإسلام، إلى العمل بالإسلام، إلى العودة إلى الإسلام، إلى استئناف حياة إسلامية حقيقية، حياة إسلامية متكاملة، توجهها عقيدة الإسلام، وتحكمها شريعة الإسلام، وتضبطها أخلاق الإسلام.

ونحن نريد هذه الحياة الإسلامية، نريد أن نحيا في حضارة إسلامية متكاملة، توجهها عقيدة الإسلام، وتحكمها شريعة الإسلام، وتضبطها أخلاق الإسلام، وتحركها دوافع الإسلام، ومشاعر الإسلام، وتربط بين أبنائها عامة أخوة الإسلام، نحن نريد هذه الحياة الإسلامية، نريد أن نحيا حضارة إسلامية، تلك الحضارة الربانية الأخلاقية الإنسانية العالمية، هذا ما ندعو إليه.

لماذا ندعو إلى الإسلام؟

ولكن لماذا ندعو إلى الإسلام؟ لماذا؟ هذا هو السؤال الكبير الذي قام عليه هذا المؤتمر، لماذا الإسلام؟ لماذا العودة إلى الإسلام؟ هنا نجيب على هذا السؤال من منطلقات ثلاثة:

1- منطلق إيماني عقائدي.

2- ومنطلق تاريخي.

3- ومنطلق واقعي.

فأي منطق حكمناه يحتم علينا العودة إلى الإسلام، سواء أحكمنا منطق الإيمان، أم حكمنا منطق التاريخ، أم حكمنا منطق الواقع.

1- منطق الإيمان يفرض علينا العودة إلى الإسلام:

فإذا نظرنا إلى منطق الإيمان، نجد أننا لا يمكن أن نكون مؤمنين إذا لم نعش بالإسلام وللإسلام، وإذا لم يصبح الإسلام منهاجا لحياتنا، ولم يصبح القرآن دستورا لمجتمعاتنا، ولم يحكم شرع الإسلام في كل شئوننا، لا إيمان بغير هذا، مقتضى الإيمان، ومقتضى التزامنا بلا إله إلا الله محمد رسول الله، مقتضى هذا أن نحكم الإسلام ونعود إليه ونطبقه كله، هل يمكن أن يوجد إيمان ولا يوجد احتكام إلى ما شرع الله ورسوله؟ القرآن ينفي هذا بصراحة، الله تعالى يقول: {**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**} [الأحزاب: 36].

ليس لك خيار بعد أن آمنت، ليس لك أن تقول: أقبل أو أرفض، بحسبك أن تعلم أن هذا الأمر أو هذا النهي جاء عن الله ورسوله، فلا يسعك إلا أن تقول: {**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ**} [البقرة: 285]. هذا هو شأن المؤمنين كما قال الله تعالى: {**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**} [النور: 51].

وهذا بخلاف المنافقين لأنهم يترددون، أحيانا يقولون: سمعنا وأطعنا إذا كان في الأمر مصلحة لهم وإلا رفضوه، وليس هذا من الإيمان في شيء، يقول القرآن الكريم: {**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا60 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا**} [النساء: 60، 61].

فالصدود عما أنزل الله والصدود عما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نفاق، سواء كان هذا صدودا من حاكم أو محكوم، مقتضى الإيمان أن ترجع إلى حكم الله ورسوله وإلا انتفى عنك الإيمان، أقسم الله على ذلك في قرآنه قسما مؤكدا، فخاطب رسوله بقوله: {**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**} [النساء: 65].

هذا هو مقتضى الإيمان، ولهذا ظلت الأمة الإسلامية ثلاثة عشر قرنا لا تعرف شريعة غير شريعة ربها، كان القرآن دستورها، وكانت الشريعة الإسلامية قانونها الذي تحتكم إليه، وإليه تلجأ في الفتوى والقضاء وفي كل شيء، كان هناك تقصير، كان هناك انحراف، كان هناك سوء الفهم لشريعة الإسلام وسوء في التطبيق لأحكامها، ولكن لم يكن هناك تمرد عليها أو رفض لها، لا يملك أحد هذا، أشد الناس طغيانا وجبروتا ما كان يملك إذا ووجه بحكم الله ورسوله إلا أن يسمع ويطيع... الحجاج بن يوسف الثقفي، الطاغية المتجبر المعروف الذي كان يأخذ بالظنة، ويقتل بالشبهة، هذا الحجاج سجن يوما رجلا ولم يكن هو الجاني، وإنما جنى بعض أقربائه فجيء به أمام الحجاج وسأله عن أمره ما الذي جاء بك، فقال: جنى جان من عرض العشيرة، من الأقارب فأخذت به وسجنت بديلا عنه، فقال الحجاج: إن الشاعر يقول:

جانيك من يجني عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب
ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف صاحب الذنب

أي أن الإنسان قد يؤخذ بذنب غيره، هكذا يقول الشاعر، فقال الرجل: إذا

كان الشاعر قد قال هذا فإن الله تعالى قال على لسان يوسف سسس: {**قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ**} [يوسف: 79]، وهذا هو المعنى الذي أكده القرآن حين قال: {**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ**} [الأنعام: 164] المسئولية الفردية، ولما سمع الحجاج هذه الآية من الرجل قال: خلوا سبيله، صدق الله وكذب الشاعر!

هكذا كان الناس، ولذلك مهما قيل إن الأمة الإسلامية قد انحرفت، فإن الإسلام ظل أساس حياتها، ولم يحدث انفصام عن شريعة الإسلام إلا في هذا العصر، يوم دخل الغزو الاستعمار بلاد المسلمين، وأقام للناس مناهج وقوانين جديدة تحكمهم وتوجههم غير قوانين ومناهج الإسلام، ما عرف هذا في وقت قط؛لأن مقتضى الإيمان يحتم على الأمة أن ترجع إلى دينها، وإلى كتاب ربها، وسنة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم .

هذا هو منطق الإيمان، وإذا احتكمنا إليه يجب أن نعود إلى القرآن وإلى السنة وإلى الإسلام حكاما ومحكومين، وإلا رمينا بالنفاق وبالكفر وبالظلم وبالفسق، والذي يرمينا بذلك هو القرآن كما قال الله تعالى في سورة المائدة في آيات ثلاث: {**وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ**} [المائدة: 44]، {**وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**} [المائدة: 45]، {**وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ**} [المائدة: 47]، ثلاث آيات أين الفرار منها؟

ولو كان رمحا واحدا لأتقيته ولكنه رمح وثان وثالث!

بعض الناس يقولون: هذه آيات نزلت في أهل الكتاب ولم تنزل في المسلمين، ونقول لهم: هذا صحيح، ولكن لفظها عام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وإذا كان الله تعالى قد حكم على أهل الكتاب بالكفر أو بالظلم أو بالفسق؛ لأنهم لم يحكموا التوراة أو الإنجيل. فهل يكون من ترك القرآن، ولم يحكم بما أنزل الله فيه، أقل إثما من هؤلاء؟! هل القرآن أدنى من هذه الكتب حتى يكون تركه والخروج عليه والإعراض عنه أقل في الإثم من ترك الحكم بالتوراة أو الإنجيل؟ لا.

ثم هل يكيل الله - جل شأنه- بكيلين ويزن بميزانين؟ اليهود أو النصارى إذا تركوا كتابهم كانوا كفرة وظلاما وفساقا، والمسلمون إذا تركوا كتابهم، واتخذوه وراءهم ظهريا، يكونون معافين من الإثم والكفر والفسق والظلم، لا... ثم لا.

إن عدل الله واحد، وميزانه واحد، فمن حكم بغير ما أنزل الله ليس له إلا أن يرمى بالكفر أو بالظلم أو بالفسق، حسب موقفه مما أنزل الله؛ هل ترك ذلك استحلالا وإنكارا واستخفافا بما أنزل الله؟ هل هو معترف بأنه عاص لله؟ أم إنه يرفض رفضا مطلقا الرجوع إلى حكم الله، ويسميه رجعية أو تخلفا أو غير ذلك؟ لا بد أن يحكم عليه بالكفر أو بالظلم أو بالفسق.

منطق الإيمان يحتم علينا الرجوع إلى الإسلام كل الإسلام وليس في زاوية من الزوايا، أو ركن من الأركان، ومما نأسف له في عصرنا هذا أن الإسلام قد حصر في البلاد الإسلامية وفي المجتمعات التي تنتسب إلى الإسلام، حصر في ركن من الأركان، مثل: ركن الحديث الديني في الإذاعة، وكثيرا ما يكون هذا الحديث في وقت ميت، والناس فيه نيام أو مشغولون، وكذلك في التليفزيون، وفي الصحف بعض صفحة في يوم الجمعة، وفي المدرسة حصة الدين، وفي القانون الأحوال الشخصية فقط، أما المعاملات

الاقتصادية والتجارية والمدنية والدستورية والإدارية والجنائية، كل هذه نجد الإسلام بعيدا عنها ومعزولا عنها تماما.

زاوية صغيرة يأخدها الإسلام، يتصدقون بها عليه وهو صاحب الملك! وحتى هذه الزاوية أحيانا تستكثر عليه! في بعض البلاد استكثر على الإسلام أن يحكم في الأحوال الشخصية، يريدون أن ينتزعوا منه هذه البقية، فيحرموا الطلاق، ويحرموا تعدد الزوجات، وهكذا يريدون التسوية بين الذكر والأنثى في الميراث!

حتى المسجد لم يترك للإسلام، المنبر لم يترك للإسلام، يريدونه منبرا موجها لا تقال فيه كلمة الإسلام، بل الكلمة التي تريدها السلطة! ومن خرج على ذلك فالويل له ثم الويل، يرمى في السجن أو في المعتقل أو يلاقي مصيرا غير معلوم!

وهكذا لم يترك الإسلام حرا، ولم يترك ليوجه الحياة، يراد له أن يأخذ جانبا واحدا من الحياة، يريدونها مسيحية أخرى، والمسيحية يمكنها أن تقبل أن تحكم بعض الحياة دون البعض، فمعروف فيها أن الإنسان مشطور شطرين:شطر للدين وشطر للدولة، شطر توجهه الكنيسة، وشطر توجهه الحكومة، شطر لرجل الدين وشطر لرجل السياسة،وهذا موجود في الإنجيل، كما يقولون: إن المسيح قال لهم: أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله! فإذن الإنسان والحياة نصفان وشطران، شطر لقيصر، وشطر الله.

والإسلام يرفض هذا المنطق تماما، يرفض قسمة الحياة، وقسمة الإنسان، فالحياة كلها لله، والإنسان كله لله، وكل شيء في هذا الوجود لله، فقيصر وما

لقيصر لله الواحد القهار، ولله ما في السموات وما في والأرض، ولله من في السموات ومن في الأرض، ولله ملك السموات والأرض، ولا يقبل الإسلام هذا الانشطار أبدا وهذه الثنائية غير موجودة فيه. هناك إنسان واحد توجهه سلطة واحدة، وقيادة واحدة، ولم تكن الخلافة الإسلامية سلطة زمنية بجانبها سلطة بابوية أو روحية أخرى، بل كانت سلطة دينية ودنيوية معا، وحينما قدم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر ليؤم الناس في الصلاة قال عمر ومن معه من الصحابة: رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟ وهكذا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم رجل دين ومعه رجل دنيا، أو ملك أو قائد آخر، بل كان هو النبي المبلغ عن الله، وهو القائد في الحرب، والرئيس للدولة، والحكم في القضاء، وكذلك كان أصحابه من بعده، الخلفاء الراشدون، ما كان هناك هذا الانفصال المشئوم بين الدين والدولة.

الإسلام دين ودولة، عقيدة وشريعة، وعبادة وقيادة، مصحف وسيف، صلاة وجهاد، لا انشطار ولا انفصام، هذا هو الإسلام، لا يقبل الإسلام أبدا تلك التجزئة بين ما سموه دينا وما سموه دولة، كله دين في نظر الإسلام، وكله شرع، الحياة نهر واحد لا تستطيع أن تفصل فيها شيئا عن شيء، السياسة مختلطة بالاقتصاد، والسياسة والاقتصاد متصلان بالتربية والتعليم، وبالإعلام، وبالفكر وبالثقافة، والحياة الاجتماعية متصلة بالحياة الفكرية، وكلتا الحياتين متصلة بالحياة الاقتصادية، والجميع متصل بالحياة السياسية، هكذا الحياة كما فطرها الله، وكما يعايشها أو يعيشها الناس.

ولذلك لا تقبل الأيديولوجيات الكبرى قسمة الحياة، الشيوعية وغيرها لا تقبل أن تقسم الحياة، تريد أن تحكم الحياة كلها، لا يمكن أن تدع التعليم

لغيرها، أو تدع الثقافة أو الفكر لسواها، تريد أن تأخذ الحياة من بابها، من ألفها إلى يئها.

وكذلك الإسلام لا يقبل أبدا أن يترك جانبا دون أن يوجهه ودون أن يحكمه، وإلا كان إيمانا ببعض الكتاب وكفرانا بالبعض الآخر، كما قال الله تعالى موبخا لبني إسرائيل حينما مزقوا الدين مزقا وأجزاء، قال: {**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**} [البقرة: 85].

هذا هو منطق الإيمان، منطق العقيدة، إذا احتكمنا إليه يحتم علينا أن نعود إلى الإسلام كله، عقيدة وشريعة، عبادة وأخلاقا، معاملات ونظاما، يجب أن نعود إلى الإسلام باعتباره منهج الحياة الذي يوجهها كلها: البيت والمسجد والمدرسة والجامعة والمحكمة والمزرعة والمصنع والشارع، وكل شئون الحياة.

ثم باعتباره رسالة تصحب الإنسان وتوجهه وتشرع له، من المهد إلى اللحد، تشرع للإنسان من وقت ولادته، بل له أحكام تتعلق بالجنين في بطن أمه، له أحكام إلى أن يموت الإنسان، فهناك أحكام الجنائز، وبعضها أحكام تتعلق بالإنسان بعد أن يموت، كيف يغسل؟ وكيف يكفن؟ ويصلي عليه؟ ويدفن؟ وكيف يتم ذلك كله؟ وكيف توزع تركته؟ وتؤدي ديونه؟ وتنفذ وصاياه؟ أحكام تتعلق بالإنسان في كل مراحل حياته[1]، فمنطق الإيمان يحتم

---

(1) انظر: «شمول الإسلام بأنواعه وجوانبه المختلفة»: فصل الشمول في كتابنا: «الخصائص العامة للإسلام» وكتاب «شمول الإسلام» شرح الأصل الأول من الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا.

علينا - حتمية دينية إيمانية- أن نعود إلى الإسلام، كل الإسلام، في جميع جوانب الحياة، وجميع أطوار الحياة.

2- منطق التاريخ يؤيد منطق الإيمان:

فإذا احتكمنا إلى المنطق الثاني، منطق التاريخ، إذا استوحينا التاريخ، ولنقتصر على تاريخ أمتنا فقط، نجد أن هذا التاريخ يفرض علينا أن نعود إلى الإسلام، فنحن لم نكن شيئا إلا بالإسلام، إذا نظرنا إلى العرب باعتبارهم صلب الأمة الإسلامية، وعصبة الإسلام، فمن أرضهم انطلق الإسلام، وفي أرضهم تقع المقدسات: مكة والبيت الحرام ويقع مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى، وبلغة العرب نزل القرآن، ومنهم أنفسهم بعث محمد عليه الصلاة والسلام ومنهم ظهر أفضل أجيال البشر، جيل الصحابة الذي نشر الإسلام في العالم.

فإذا نظرنا إلى العرب ماذا كانوا قبل الإسلام، وماذا كانوا بعد الإسلام؟ نجد أنهم قبل الإسلام لم يكونوا شيئا مذكورا، ماذا كانت أمة العرب؟ أمة لم تكن لها حكمة الهند، ولا صنعة الصين، ولا فلسفة اليونان، ولا تشريع الرومان، ولا مدنية الفرس. أمة مبعثرة ممزقة إلى قبائل، يأكل بعضها بعضا، مزقتها العصبية العمياء، ينتصر كل واحد لقبيلته بالحق أو بالباطل، إذا غضب الرجل -خصوصا إذا كانت له مكانة في قبيلته- غضب له ألف سيف، عشرة آلاف سيف، مائة ألف سيف، لا يسألونه فيما غضب، وكما قال شاعرهم:

لا يسألون أخاهم حين ينـدبهم في النائبات على ما قال برهانا

بحسبه أن نقول: إن القبيلة الفلانية قد تعدت عليه، فيهب الجميع للقتال، وتقوم حرب قد تطول عشرات السنين لأتفه الأسباب... قامت حرب البسوس بين بكر وتغلب في الجاهلية أربعين سنة من أجل ناقة، وقامت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان من أجل فرس! عصبية قبلية شديدة ضيقة الأفق، شعار الواحد منهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «**انصر أخاك ظالما أو مظلوما**»، هذا شعارهم قبل أن يعدله النبي -عليه الصلاة والسلام- ويعطيه مفهوما آخر فيقول: «**تنصره ظالما؛ بأن تمنعه من الظلم**»[2]، ولكنهم قبل ذلك كانوا يأخذون الكلمة على ظاهرها قبل تعديل هذا المفهوم بالإسلام.

كان العرب أمة مبعثرة ضائعة، كانوا في ضلال مبين، كما قال الله تتت: {**هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ**} [الجمعة: 2]، وأي ضلال أكبر من عبادة الأصنام، الكعبة التي بنيت للتوحيد كان فيها وحولها ثلاث مائة وستون صنما! القبائل لها أصنام لكل قبيلة، بل للفرد، والبيت الواحد كان فيه صنم أو أكثر. كان الشخص إذا سافر يصحب إلهه معه. ومما يحكى من الطرائف المضحكة - وشر المصائب ما يضحك- أن أحدهم كان أحيانًا يأخذ آلهه معه، وبعض القبائل كانت تصنع آلهة من العجوة، فإذا فنى الزاد في السفر غلبه الجوع، ماذا يصنع والمعدة لا ترحم؟ فلا يجد إلا إلهه، الإله المصنوع من العجوة، فيستدير إليه ويأكله، أحيانا يفطر بثلثه، ويتغذى بثلثه، ويتعشى بالثلث الآخر! آلهة تؤكل ويتهافت عليها الذباب، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم:

---

(2) رواه البخاري في «الإكراه» حديث (6952).

{**وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ**} [الحج: 73].

يقول أبو رجاء العطاردي: كنا إذا استحسنا حجرا عبدناه، فإذا وجدنا حجرا أحسن منه طرحنا الأول وعبدنا الثاني، فإذا لم نجد حجرا جئنا ببعض حثيات من التراب وحلبنا عليها من شاة ثم صورناها واتخذناها إلها.

أي أمة هذه التي وصل الأمر بها إلى هذا الحد؟ فسد العقل الإنساني، فعبد الأحجار، وعبد آلهة من الحلوى أو من العجوة ثم يأكلها! وفسد القلب الإنساني إلى حد أن الإنسان في الجاهلية كان يقتل ولده الذي خرج من صلبه، ويقتله لماذا؟ يقتله من إملاق أو خشية إملاق، أي من فقر واقع أو خشية من فقر متوقع، ويقول: أجاء هذا المولود ليزيد فقرنا فقرا، أو ليضيق علينا الرزق؟ ويقتل ولده كما جاء في الحديث: «**مخافة أن يطعم معه**»(3)، وبخاصة البنات، فقد كان القتل فيهن أكثر؛ لأنهن لم يكن يسعين للرزق ويشاركن فيه، وكذلك خشية أن يجلبن العار في المستقبل، فقد تأسرها قبيلة من القبائل المغيرة، وتجلب على أهلها الذل، وتلطخ جبين القبيلة بالعار، ومن هنا كانوا يقتلون البنات ويئدونهن، ولا يفرحون بولادتهن.

قيل لبعضهم: امرأتك ولدت، قال: وما ولدت؟ قيل: أنثى، قال: ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء وبرها سرقة! أي إذا نصرتني لا تنصرني بحمل السيف وإنما بالبكاء والعويل، وإذا برتني تبرني من مال زوجها، أي: تسرق زوجها.

هذه هي نظرتهم للأنثى، ولذلك يقول القرآن الكريم: {**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ58 يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ**

(3) جزء من حديث متفق عليه عن ابن مسعود.

أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ} [النحل: 58-59]، يتوارى من القوم، أى يبحث عن الطرق البعيدة عن الناس كأنما ارتكب جريمة ويريد أن يتخفى من الناس حتى لا يروه، ثم يفكر هل يرضى بالواقع وبالذل وبالهوان ويقبل هذا المخلوق الجديد أم يتخلص منه ويدسه في التراب؟ وكثيرا ما كان ينتصر الاتجاه الثاني فيدسه في التراب.

أية بشاعة وأية جريمة أفظع من هذه الجريمة؟ القتل في ذاته جريمة بشعة؛ لأنه هدم لبناء بناه الله عز وجل، فكيف إذا كان قتل طفل بريء لم يقترف جرما ولم يرتكب إثما؟

وكيف إذا كان هذا الطفل ابن الإنسان؟ الأب الذي يفترض فيه أن يحمي أبناءه ويجوع ليشبعوا، يقتل ولده وفلذة كبده بيده ويقتله خوفا من أن يطعم معه ويشاركه في الأكل والرزق، يقتله من أجل الإملاق ومن أجل اللقمة!

وكيف يقتله: ليته يضربه بالسيف فيريحه، لكنه يحفر له حفرة ثم يدفنه فيها حيا! وفي بعض القصص أن الرجل ذهب يدفن ابنته وهي تنفض الغبار المتطاير عن لحيته، تخاف عن لحيتة من الغبار ولايخاف عليها من الموت، فيدفنها حية!

أي جناية جنتها الجاهلية على الإنسان؟ الإنسان عقل وقلب، وقد فسد عقل الإنسان إلى حد عبادة الأحجار وعبادة إله العجوة، وفسد قلب الإنسان وعاطفته إلى حد أنه يقتل ولده، يقتل ابنته وفلذة كبده.

هكذا أفسدت الجاهلية الحياة، ولذلك أصبح كل ما في الحياة فاسدا بعد ذلك، ليس هناك تشريع يضمن حقوق الضعفاء من الناس، حق الفقير، أو حق

الرقيق، أو حق المرأة. المرأة كانت تورث ولا ترث، الرجل يرث امرأة أبيه مع ما يرثه من المال، يرثها كما يرث دابته وبقرته، إن أعجبته تزوجها وإن لم تعجبه أخذ منها شيئا تفدي به نفسها، إتاوة يفرضها عليها، حتى يتركها حرة تتزوج بعد أبيه من تشاء.

الرقيق كانوا كأنهم ماشية، الفقراء لا حقوق لهم، لا يعتبر الأغنياء أن لهم أي حق عندهم، القوى يأكل الضعيف، هكذا كان الناس في الجاهليه، الخمر والزنا أشد ما يكون من الانتشار، أولع العرب بالخمر فكان لها حوالي مائتي اسم، ووصفوها في أشعارهم، وصفوا مجالسها وندماءها وأقداحها, إلى آخره, الزنا منتشر: علني وهو السفاح، وسري وهو اتخاذ الأخدان, كان للرجل رفيقة معينة, وللمرأة رفيق معين.

كل هذا كان منتشرا, فسدت الحياة, أفسدتها الجاهلية, وجاء الإسلام فجعل من هذه الأمة شيئا جديدا, جمع الشتات, وأحيا الموات, علمهم من جهالة, وهداهم من ضلالة, وقواهم من ضعف, وعلمهم النظام بعد الفوضى, والطهارة بعد الإباحية, والاستقامة بعد الإنحراف, والتوحيد بعد الوثنية. تعلموا بعد أن كانوا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب, كما جاء في الحديث. الذين يكتبون ويقرأون من العرب كانوا معدودين علي الأصابع, ومنذ غزوة بدر جعل النبي صلى الله عليه وسلم فداء من يكتب أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة.

أول آية نزلت من القرآن كانت: ﴿**ٱقۡرَأۡ**﴾ [العلق: 1]، وكانت السورة الثانية هي سورة القلم: ﴿**وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ**﴾ [القلم: 1], أقسم الله بالقلم ليدعو الأمة إلى أن تتعلم, تغيرت الأمة من الجهالة إلى العلم, علم الدين وعلم الدنيا, انتشر

العلم, وقامت حضارة جمعت بين العلم والدين, بينما عرفت الأمم الأخرى الصراع بين الدين والعلم, صراع طويل عرفته المسيحية وغيرها بين الدين من ناحية وبين العلم من ناحية أخرى, قامت محاكم التفتيش تحاكم العلماء وتقتلهم وتحرق جثثهم بعد موتهم, وتحرق كتبهم. ومن جاء بنظرية جديدة أو باختراع جديد, فلا يقبل منه, بل يعاقب عليه! ولم يعرف الإسلام هذا؛ لأن الدين عندنا علم, والعلم عندنا دين.

الحضارة الإسلامية عرفت بأنها حضارة علمية ايمانية معا, وكتب المسلمين العلمية كانت هي المراجع العلمية التي تدرس في الجامعات في أوربا وغيرها, من أمثال كتاب «القانون» في الطب لابن سينا, أو «الحاوي» في الطب للرازي, أو «التصريف لمن عجز عن التأليف» لأبي القاسم الزهراوي, أو «الكليات» لابن رشد. هذه كلها كتب طبية كانت مراجع علمية عالمية, وكذلك في الفلك وفي الرياضيات وفي الجبر، المسلمون هم الذين اخترعوا علم الجبر، اخترعه الخوارزمي، واخترعه ليحل به مسائل في الميراث والوصايا، ولذلك نشر معه «رسالة الوصية»، هكذا كان العلم في الحضارة الإسلامية.

المسلمون هم الذين وضعوا أسس المنهج التجريبي الذي ينسب الآن إلى فرنسيس بيكون، المسلمون هم واضعوا هذا المنهج حقيقة، وهذا ما اعترف به مؤرخو العلم، جورج سارتون في كتابه «تاريخ العلم»، جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»، داريبر في كتابه «النزاع بين العلم والدين»، بريفولت في كتابه «بناء الإنسانية» كلهم اعترفوا بأن المنهج التجريبي أخذ من الحضارة الإسلامية وفرنسيس بيكون وسميه روجر بيكون كانا رسولي

الحضارة الإسلامية إلى أوربا، اللغة العربية كانت اللغة الوحيدة التي تعتبر لغة العلم العالمية في ذلك الوقت.

هكذا صنع الإسلام، غير الأمة الأمية إلى أمة علم، أخذت من الأمم الأخرى وزادت عليها, أخذت من اليونان ومن الهند ومن الفرس ومن الروم, وأضافت وهذبت ونقحت وابتكرت.

ومن ناحية أخرى صنع الإسلام إنسانا جديدا غير إنسان الجاهلية, صنع إنسانا له عقل وقلب, رفض الوثنيه بكل أنواعها وصورها وأبي إلا التوحيد, وعرف معنى: «لا إله إلا الله» فلم تعد جبهته تطأطىء لإنسان، لم يعد ينحني راكعا، أو يخر ساجدا إلا لله، عرف معنى العزة بالإسلام والكرامة بالإسلام: {**وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**} [المنافقون: 8].

صنع الإسلام من الإنسان العربي القديم خلقا آخر، انتقل من الجاهلية إلى الإسلام بعقل جديد وفكر جديد، باتجاهات جديدة، وبأخلاق جديدة، وبسلوك جديد. ولذلك صنع حضارة ضخمة, صنع تاريخا شامخا جمع فيه العلم إلى الإيمان, إلي الأخلاق الربانية والإنسانية, أقام حضارة عادلة تعدل بين الأمم, وتعدل بين الطبقات, كما تعدل بين الأفراد.

عرف الفقير لأول مرة أن له حقًّا عند الغني, الإسلام قرر أن للفقراء حقوقا في أموال الأغنياء قبل أن تظهر المذاهب التي نعرفها في عصرنا كالاشتراكية وغيرها، سماه القرآن حقا: {**وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ**} [المعارج: 24] لم يعقد الفقراء مؤتمر ليطالبه بحق لهم، ولم يسيروا مظاهرة تطالب بما لهم عند الأغنياء، بل ما شعروا يوما أن لهم أي حق، ولا الأغنياء

اعترفوا بهذا الحق، ولكن الإسلام أقر ذلك وفرضه؛ لأن المال مال الله، والناس عباد الله، فيجب أن يأكل عباد الله من مال الله، الجميع يجب أن يأكل من هذه المائدة الممدودة التي مدها الله للجميع، ولم يكن هذا مجرد شيء يتطوع به، أو شيء هلامي غير محدد، فقد أصبحت هناك فريضة إسلامية تعتبر الركن الثالث في الإسلام اسمها «الزكاة»، ذات حقوق محددة، وحدود معلومة: فيم تجب الزكاة؟ وكم يجب من المال؟ عشر، نصف عشر، ربع عشر؟ ومتى تجب فريضة حولية أو فريضة عند الحصاد؟ {**وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ**} [الأنعام: 141] وهناك طوائف، ثمانية مصارف مستحقة، وهناك إشراف من الدولة: {**خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ**} [التوبة: 103] بواسطة «العاملين عليها»، ومن لم يدفع طوعا أخذت منه كرها.

وكانت الدولة الإسلامية أول دولة في التاريخ تقاتل، وتشهر السيف، وتعلن الحرب من أجل انتزاع حقوق الفقراء عند الأغنياء.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من حارب من أجل هذا، وقال كلمته المعروفة: «والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه»، وجيش أحد عشر جيشا لقتال المرتدين ومانعي الزكاة.

امتد الرخاء في هذه الدولة حتى إنه في زمن عمر ابن عبد العزيز كان الرجل يهمه أمر زكاته، فيبحث عن من يقبل منه صدقته، وكان أحيانا يلف ويدور يفتش عمن يأخذ الزكاة فلا يجده، ويرجع بها كما كانت، وهكذا بلغ المسلمون من القوة.

جلس الخليفة العباسي هارون الرشيد يوما ينظر إلى سحابة في السماء

فقال لها من منطق العزة والافتخار: أيتها السحابة شرقي أو غربي، وأمطري حيث شئت فسيأتي الخراج إلى بيت مال المسلمين! أي: حيثما ذهبت تمطرين في أرض إسلامية وتخرجين زرعا يؤخذ منه العشر زكاة إلى بيت المال، ومن بلاد أخرى يأتي الخراج ويؤخذ منه إلى بيت مال المسلمين.

ما الذي صنع هذا؟ إنه الإسلام ولا شيء غير الإسلام، الإسلام هو الذي صنع هذا المجد، هذا الرخاء، هذا العدل، هذه القوة، هو الذي صنع هذه الأمة الكبيرة، وصنع هذه الحضارة العظيمة، الإسلام بغير شك هو صانع هذا كله، ورضي الله عن عمر حينما ذهب إلى الشام، وقابلته مخاضة في الطريق، فنزل وقد خلع نعليه، وخاض كما يخوض عامة الناس، شمر عن ساقيه وخاض المخاضة، فقال له أبو عبيدة أمير الجيوش: لو فعلت غير ذلك! يعني: لو بقيت على حصانك أو ناقتك ولا داعي أن تخوض كما يخوض عامة الناس حتى تظهر بالفخامة والأبهة التي عرفها هؤلاء الناس للملوك وللأباطرة والقياصرة من قبل، فقال عمر لأبي عبيدة: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! استكثر عليه أن يقول مثل هذا وهو أمين الأمة، قال: يا أبا عبيدة، نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله!

عزة الأمة الإسلامية بالإسلام، هذا هو منطق التاريخ، والفترات المضيئة المخصبة في التاريخ الإسلامي هي الفترات التي يقترب الناس فيها من الإسلام، إذا رأيت انتصارا فاعلم أن وراءه رجعة إلى الإسلام، وحركة بالإسلام وإلى الإسلام، لننظر لفترة مثل فترة عمر ابن عبد العزيز الذي سار على نهج الخلفاء الراشدين وأحيا سنة عمر الأول، واعتبر خامس الخلفاء الراشدين، ورغم أنه حكم ثلاثين شهرا فقط نجده قد أقام هذا الرخاء، وأقام

هذه الحياة، فكيف لو طالت مدته؟

ولننظر لعصر صلاح الدين الأيوبي، ومن قبله الشهيد نور الدين محمود، لقد حكما بشرع الله عز وجل ونفذ الإسلام، ونفخا في الناس روح الإيمان، ولم ينتصر صلاح الدين الأيوبي بمجرد الكلام، بل حاول أن يصنع من السلاح ما قدر عليه، وأن يجدد الإيمان في القلوب، كان بين الصفوف في المعركة يطلب أن يقرأ عليه من صحيح البخاري، فيقرأ له، وكان يمر بالليل على جنود جيشه في الخيام، فإذا وجد في خيمة من الخيام رجلا يصلي، أو يقرأ القرآن، أو يذكر الله، أو يسبح أو يهلل، أو يكبر، فرح وقال: الحمد لله، بهذا ننتصر! وإذا وجد خيمة من الخيام أهلها كلهم نيام يقول: أخشى أن تجيئنا الهزيمة من مثل هذه الخيمة؛ لأن الكل نيام ولا أحد يقول: يارب!.

بهذا انتصر صلاح الدين على الصليبيين، الذين جاءوا بقضهم وقضيضهم من أوربا يريدون أن يجتاحوا الإسلام في دياره.

فإذا رأيت مرحلة من المراحل التاريخية فيها عز وازدهار، وقوة وانتصار، فاعلم أن هناك إسلاما تحرك وحرك، هذا هو الثابت في التاريخ، ولذلك إذا ما أردنا العزة والقوة والسيادة والتحرر والوحدة فلنرجع إلى الإسلام، ولنجرب، والإنسان إذا جرب دواء واستراح عليه وشفي به، فمن المفروض أن يستعمل هذا الدواء ولا يبحث عن دواء جديد كي لا يجعل نفسه حقل تجارب لأدوية متعددة يصفها له الواصفون، وخاصة إذا كان هؤلاء الواصفون غير مأمونين عليه.

لقد جربنا الإسلام في تاريخنا، جربته أمتنا، فوجدت فيه الشفاء لكل داء،

والحل لكل عقدة، والعلاج لكل معضلة، ولا غرو فهو هدي الله، وهو الهداية الربانية، وهو القانون السماوي، دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، حكم الله: {**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**} [المائدة: 50] هذا هو منطق التاريخ إذا أردنا الاحتكام إليه.

3- منطق الواقع يؤيد منطق الإيمان ومنطق التاريخ:

بقي منطق آخر يجب أن نتحدث عنه، إذا لم يكفنا منطق الإيمان، وإذا لم يقنعنا منطق التاريخ فلنحتكم إلى منطق الواقع وهو منطق قوى السلطان، واضح البرهان، فالواقع الذي نعيشه، هذا الواقع يفرض علينا أن نعود إلى الإسلام كل الإسلام.

لقد جربنا الأفكار والمذاهب والأنظمة المستوردة من الشرق أو الغرب، جربنا النظام الرأسمالي الليبرالي، وجربنا النظام الاشتراكي الثوري في بلادنا الإسلامية، فماذا أنتجت هذه الأنظمة وهذه المذاهب المستوردة؟ إنها لم تطعم الناس من جوع، ولا آمنتهم من خوف، ولا أسعدتهم من شقاء، ولا وحدتهم من فرقة، ولا قوتهم من ضعف، ولا أعزتهم من ذل، وظللنا نحن كما نحن، مشاكلنا لم تحل، بل ازدادت، ولم ننتقل من سيييء إلى أحسن.

فمن المفروض أننا حين نجرب نظاما من الأنظمة، أو حلا من الحلول، أن ننتقل من أسوأ إلى سيييء، ومن سيييء إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، ولكن الذي يحدث للأسف أننا ننتقل من سيييء إلى أسوأ، ومن أسوأ إلى أشد سواءا، وهكذا، نشكو وتشكو كل البلاد.

نحن نشكو فسادا أخلاقيا، وانهيارا اقتصاديا، وتفسخا اجتماعيا، وتحللا

أسريا، نشكو ضعفا دينيا، واضطرابا سياسيا، نشكو تجزئة الأمة وتفرقها، كثرت الشكوى من كل ناحية، ولكن ما النتيجة؟ الكل يشكو ويتساءل: أين العلاج؟ والعلاج بين أيدينا ولكنا لا نلجأ إليه.

لقد جربنا ما استورد من الغرب، وما استورد من الشرق، ولم نجرب ما عندنا، والأصل أن نجرب بضاعتنا قبل أن نستورد من هنا ومن هناك، الأنظمة الاقتصادية الآن تمنع استيراد بضاعة يصنع مثلها في البلد حماية لها.

كذلك لا يجوز للإنسان أن يتسول وهو غني؛ لأن هذا شيء تعاقب عليه الأخلاق، وتعاقب عليه القوانين، ونحن نتسول رغم أننا لدينا أعظم ثروة تشريعية، وعندنا أعظم هداية ربانية،ومع هذا نبحث عن هذا وذاك، نبحث في فلسفات الغرب والشرق، ونتسكع هنا وهناك، نريد أن نأكل من موائد غيرنا، وجربنا وما نفع، فماذا صنعنا؟

الأمة حتى الآن لم تتقدم، لا زلنا متخلفين في معركة التقدم، لم نتقدم صناعيا ولا زراعيا، بلد مثل مصر بدأ نهضته الصناعية مع اليابان في وقت واحد، في أيام محمد علي، انظروا أين وصلت اليابان؟ وأين نحن؟

بلاد بدأت الصناعة منذ عهد قريب مثل كوريا أصبحت منتجاتها في قلب أوربا وأمريكا الآن، ونحن ما زلنا وراء الوراء، لم نصنع ما نحتاج إليه لا عسكريا ولا مدنيا، وإذا لم يمدنا غيرنا بالسلاح وقفنا مكتوفي الأيدي في أية معركة؛ لأن الطائرة والصاروخ والدبابة والمدفع والبندقية من عند غيرنا، فكيف نحارب وأسلحتنا بيد غيرنا؟ هذا من الناحية العسكرية.

ومن الناحية المدنية فنحن لم نصنع حتى الصناعات البسيطة، نستوردها أيضا، ولقد أشار القرآن إلى الصناعات الحربية في قوله تعالى: {**وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**} [الحديد: 25]، وإلى الصناعات المدنية في قوله تعالى: {**وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ**} [الحديد: 25] ولطالما قلت: إن أمة سورة الحديد لم تتعلم صناعة الحديد إلى اليوم وهكذا لا زلنا متخلفين.

العالم الإسلامي كله يصنف ضمن «العالم الثالث» الذي يسمونه «البلاد النامية»، وعبارة البلاد النامية تعبير ملطف للبلاد المتخلفة، أي أنها بلاد تسعى للنمو، وللأسف فهو نمو بطيء جدا، ونحن نسير بسرعة السلحفاة، وغيرنا يسير بسرعة الصاروخ. فتزداد الهوة كل يوم بيننا وبين العالم المتقدم الذي نحاول اللحاق به، وهيهات هيهات.

ماذا صنعت الأنظمة العلمانية التي تحكم العالم الإسلامي؟ لم تصنع في معركة التقدم شيئا، فالعالم يعيش الآن عصر الصناعة الثاني بعد أن عاش عصرها الأول الذي كانت الآلة تعمل فيه لتوفير الجهد البدني والعضلي للإنسان. الآن وفي عصر الصناعة الثاني أصبحت الآلة تعمل لتوفير الجهد العقلي للإنسان، عصر «الكمبيوتر»، إلى أي مدى وصلنا نحن في هذا؟ لا زلنا في مرحلة الصفر!

وليس هذا في الصناعة فقط بل في الزراعة أيضا فالعالم الإسلامي، وهو عالم زراعي في أصله، لا يستطيع أن يكفي نفسه بنفسه، يحتاج إلى أن يستورد القمح أو الأرز، ولو كفت البلاد الأخرى أيديها عن إمداده لمات جوعا! فماذا إذن؟

إذا كنا لا نستطيع أن ندافع عن أنفسنا؛ لأن سلاحنا من عند غيرنا، وإذا كنا لا نستطيع أن نشبع بطوننا؛ لأن قوتنا أيضا في كثير منه من عند غيرنا، فماذا صنعنا؟

نحن متخلفون صناعيا وزراعيا وعلميا وفي كل النواحي، مجزءون مبعثرون، الأمة الإسلامية الآن حوالي ألف مليون نسمة، ولكنهم ليسوا قوة مؤثرة، لماذا؟ لأنهم كما وصفهم الحديث: «**كثرة كغثاء السيل**»[4]، وغثاء السيل هو ما يحمله السيل العارم من الحطب والقش والورق والخشب، أشياء خفيفة سطحية غير متجانسة، تسير في غير هدف مرسوم، وفي غير مجرى معلوم، وهكذا الأمة الكبيرة حينما لا يكون لها هدف واحد، ولا يكون بينها تجانس، ولا يكون لها خط محدد يخف وزنها، وتصبح غثاء كغثاء السيل، وينزع الله من صدور عدوها المهابة منها، ويقذف في قلوبهم الوهن.

هذه هي أمتنا الإسلامية، لم تصنع شيئا رغم كثرة عددها، ولم يكن لها أن تتحد ما لم يكن الإسلام هو موحد كلمتها، وبغيره يفترق الناس يمينا ويسارا، وينقسمون إلى يمينيين ويساريين، وينقسم أيضا كل من اليمين واليسار إلى مراتب ودرجات، وإلى قبلات متعددة، وبذلك لا يلتقون ما دامت وجهتهم غير الإسلام، وهدفهم غير رضوان الله عز وجل، وهذا هو ما حذر منه رسول صلى الله عليه وسلم حينما خط خطا مستقيما وقال: «**هذا سبيل الله**

---

(4) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان مرفوعًا: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها**» قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**» قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**».

المستقيم»، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطا متعرجة وقال: «**هذه سبل، على رأس كل واحد منها شيطان يدعو إليه**»، ثم تلا قول الله تعالى: {**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**} [الأنعام: 153].

منهج الله هو الذي يجمع الجميع، وإلا تفرق الجميع ولم يلتقوا، وهذا ما يحدث في الأمة الإسلامية، جماعة تتجه نحو الشرق، وجماعة نحو الغرب، وحتى داخل الوطن الواحد والشعب الواحد نجد الناس ممزقين ومبعثرين، والإسلام وحده هو الذي يستطيع أن يجمعهم ويؤاخي بينهم، ويجعل منهم كتلة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، ويعطيهم روح القوة وقوة الروح، ويجدد شباب الإيمان فيهم، ويجعل منهم قوة فعالة مؤثرة؛ لأنه صانع المعجزات.

لماذا وقفت الأمة الإسلامية أمام فارس والروم؟ لقد انتصر العرب عليهما، رغم أنهما كانا أكثر عددا وأقوى عدة، وأعظم حضارة، انتصروا عليهم بالإسلام بعقيدة عظيمة، ورسالة جديدة، جعلت منهم أناسي جددا.

وفي عصرنا هذا لم نستطع ونحن مئة وخمسون مليون عربي -أو أكثر- الانتصار على بني إسرائيل؛ لأننا لم نقاومهم بالإسلام، ولقد أقامت إسرائيل دولتها باسم الدين، وحاربت بعقيدة، ونحن لم نرض لمعاركنا أن تقاد باسم الله، وباسم الإسلام، وحاربنا بغير عقيدة، فلا عجب أن ينتصروا وأن ننهزم!

ويوم رجعنا إلى إسلامنا مدة من الزمن، صنعنا عجبا في معركة العاشر من رمضان سنة 1393هـ، وأبطلنا أسطورة القوة التي لا تقهر، والسلاح

وحده لا يقاتل، وإنما يقاتل السلاح بيد من يستعمله، يقول المتنبي:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام!

ويقول الطغرائي:

وشيمة السيف أن يزهى ولـيس يعمل إلا في يد بطل!

والبطولة إنما يصنعها الإيمان، وإذا كان عند اليهود التوراة، فعندنا القرآن، وإذا كان عندهم التلمود فعندنا السنة، عندنا صحيح البخاري ومسلم، عندنا دواوين الحديث الشريف، لماذا لا نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به؟ هذا ما ينبغي أن نفعله.

الإسلام هو القادر وحده على أن ينقذنا مما نحن فيه؛ لأن العمل كي يتقن يحتاج إلى أخلاق، والصانع الذي يتقن عمله لا بد له من مجموعة أخلاق تكون سلوكه، وتكيف حياته، ولا يكون ذلك إلا بعقيدة، والعقيدة عندنا هي الإسلام، فإذا فرغنا الناس من العقيدة لم نجد الصانع الذي يحسن، ولا العامل الذي يتقن، والذي فهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه**»[5].

نحن في حاجة إلى الإسلام في كل أمور حياتنا لنستقر ونشعر بالطمأنينة بدلا من الهزات المستمرة. الهزات النفسية والهزات الاجتماعية، والهزات السياسية، والانقلابات العسكرية، والاضطرابات المستمرة في بلادنا الإسلامية.

---

(5) رواه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (101/4) وقال: «رواه أبو يعلى وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة»، وذكره الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (1113).

نحن في حاجة إلى الإسلام؛ لأنه وحده الذي يوجد التوازن والاعتدال في حياتنا ويعطي المنهج الوسط للأمة الوسط، المنهج الذي يوازن بين العقل والقلب، ويمزج الروح بالمادة، ويجمع بين الدنيا والآخرة، بين حق النفس وحق الله تبارك وتعالى، يعطي الإنسان في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، هو الذي يوازن بين الروحية والمادية، بين المثالية والواقعية، بين الفردية والجماعية، بين حق الفرد ومصلحة المجتمع، الإسلام وحده هو الذي يقيم هذا التوازن في الحياة وبدون هذا سنظل نشعر بالقلق: هل نحن روحيون أو ماديون، فرديون أو جماعيون؟سلفيون أو معاصرون؟ ونحن في الحقيقة أمة وسط، وإذا لم نقف على المنهج الوسط فسنظل نضطرب ونتأرجح، ولا يمكن أن نثبت على حال أبدا إلا بالرجعة إلى الإسلام.

الإسلام وحده هو القادر على إنقاذنا مما نعانيه من مشكلات وويلات في جوانب الحياة، هذا ما ينادي به منطق الواقع، ولقد جربنا الأنظمة والأفكار والمذاهب المستوردة فلنجرب الإسلام.

في بعض البلاد الإسلامية أنتجت بعض تجارب للإسلام الخير الكثير، فما بالكم لو طبق الإسلام بحذافيره، وعاش الناس في مناخ إسلامي إيجابي، يتربى فيه الإنسان بتربية الإسلام، ويتأثر بأفكار الإسلام، وقيم الإسلام، وتوجيه الإسلام، ويعيش الناس فيه تحت إيحاء الإسلام، وتأثير الإسلام، وجهتهم كلها إسلامية، ومفاهيمهم إسلامية، ومشاعرهم إسلامية، وقيمهم إسلامية؟

سنجد الإنسان الصالح، والأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح؛ لأن أساس المجتمع الصالح الإنسان الصالح، ولا يصلح الإنسان إلا العقيدة، وإذا

أصلحت الفرد صلحت الجماعة، وإنما يصلح الفرد بصلاح نفسه: {**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**} [الرعد: 11].

منطق «ماركس» أن غير الاقتصاد وعلاقات الإنتاج يتغير التاريخ، منطقنا نحن منطق القرآن وهو المنطق الواقعي، غير نفسك يتغير التاريخ، غيروا ما بأنفسكم يغير الله ما بكم، وإنما يتغير ما بالأنفس بالعقيدة، ولو عدنا إلى الإسلام لكونا الإنسان الصالح الذي هو أساس المجتمعات الصالحة، وإصلاح الحياة والمجتمعات لا يتم بقرارات، وإنما يتم بأن تصلح أنفس الناس وأخلاقهم وضمائرهم قبل كل شيء:

لن يصلح القانون فينا رادعا حتى نكون ذوي ضمائر تردع

حينما جاء الإسلام كان العرب مولعين بالخمر إلى حد الافتتان، فحرمها الإسلام بعد أن صب في عروقهم الإيمان، فلما آمنوا ونزل قول الله تعالى: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ90 إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**} [المائدة: 90،91]، فماذا قالوا؟ قالوا: قد انتهينا يا رب، قد انتهينا يا رب، قد انتهينا يا رب. كان الواحد منهم ممسكا بالكأس في يده قد شرب بعضا وبقى بعض، ولما سمع بنزول الآية لم يشرب الباقي، بل أفرغ الكأس وقال: انتهينا، وذهب إلى ما في بيته من قرب الخمر، فأفرغها وأراقها في طرقات المدينة.

أمريكا حاولت أن تحرم الخمر فأصدرت لذلك القوانين والنشرات الإعلامية، وأنفقت الملايين، وجندت الجيش والأسطول والشرطة، لمحاربة

شرب الخمر، وقبل ذلك: صناعة الخمر واستيرادها، وتهريبها والاتجار فيها، ثم فشلت في آخر المطاف، ونفس المجلس التشريعي الذي أقر التحريم أقر الإباحة، وقالوا: نحن مقتنعون بأضرارها، ولكن الشعب الأمريكي غير مقتنع بذلك، فشلت الأساطيل وفشلت الجيوش، وفشلت القوانين، وفشلت الحملات الإعلامية في أمريكا ونجح الإيمان وحده في جزيرة العرب!

فإذا أردنا أن نقيم حياة إنسانية أخلاقية فاضلة فلنعد إلى الإسلام، فهو الذي يعطينا الوازع الذاتي، هو الذي يصنع الضمائر الحية، هو الذي ينشئ الإنسان الصالح، الذي هو أساس الحياة الاجتماعية الصالحة كلها.

هذا هو منطق الواقع، يفرض علينا أن نعود إلى الإسلام، فأي منطق احتكمنا إليه حتم علينا الرجوع إلى الإسلام.

إذا احتكمنا إلى منطق الإيمان أوجب علينا الرجوع إلى الإسلام.

وإذا احتكمنا إلى منطق التاريخ أكد لنا أن لا نجاة ولا سعادة ولا انتصار ولا وحدة إلا بالإسلام، هكذا علمنا تاريخنا.

وإذا لجأنا إلى منطق الواقع فإن الواقع يقول: إننا نعيش في حيرة وقلق وتناقض وهزيمة وتخلف، وإنه لا نجاة لنا إلا بالإسلام، هذا ما يقوله الواقع، وهذا ما تنطق به سطور الحياة كلها.

فلنفهم هذا جيدا ولنرجع إلى الإسلام، ولنؤمن به، ولكن ليس الإسلام الذي يريده الاستعمار منا، أو الذي يريده الطغاة، ليس ذلك الإسلام «المستأنس» الذي يسير في ركاب الظالمين، ويقبل الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، ليس إسلام المفرطين ولا إسلام الغلاة، بل إسلام القرآن

والسنة، الإسلام الأول: إسلام الصحابة ومن تبعهم بإحسان، إسلام القرون الأولى، الإسلام كما جاء به القرآن الكريم، وكما دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، وكما طبقه الجيل الرباني الأول، الإسلام الصحيح من منابعه المصفاة.

هذا هو الإسلام الذي نريده لأمتنا، ويوم يحكم هذا الإسلام حياتنا، ويوم نستأنف الحياة الإسلامية في ظل هذا الإسلام الصحيح المتكامل، فإننا سنسعد في الدنيا قبل الآخرة، سنرضي الله تعالى، وسننال إعجاب العقلاء من الناس، وسنرضي عن أنفسنا المعذبة، الإسلام وحده هو السبيل، هو الصراط، هو حبل النجاة، هو سفينة الإنقاذ ولا إنقاذ بغيره:

ومن العجائب والعجائب جمة قرب السبيل وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

نسأل الله عز وجل أن يردنا إلى الإسلام ردا جميلا، وأن يعيدنا إلى هذا الدين نطبقه كله: عقيدة وشريعة، عبادة وأخلاقا، نظاما وحضارة، رابطة وأخوة، كما أراد الله عز وجل، حتى نعود أمة واحدة، أمة إسلامية كما أمر الله، لا أمما شتى كما أراد الاستعمار.

نسأل الله عز وجل أن يجعل يوم المسلمين خيرا من أمسهم، وأن يجعل غدهم خيرا من يومهم، إنه سميع قريب.. وحياكم الله أيها الأخوة، وبارك الله فيكم، وبارك في مسعاكم، وأنجح عملكم، إنه سميع قريب، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *